# الملاحظة بالمشاركة

**تمهيد**: شكلت الملاحظة واحدة من أهم أدوات البحث العلمي التي جرى استخدامها على نطاق واسع في حقل الدراسات الأنثروبولوجية قديما وحديثا، وذلك نتاج ما تتيحه للباحثين في هذا المجال من إمكانيات التعمق في جوانب موضوعاتهم المختلفة، والتي سنحاول التعرف عليها عن كثب من خلال اوراق هذه المحاضرة.

**أولا. الملاحظة دون مشاركة**: تعرف بأنها دراسة أفراد العينة من الخارج، حيث يكون له دور محدود ومختلف عن باقي أدوار أفراد مجتمع الدراسة. وفي هذا النوع يبقى الباحث غير معروف، ولا يلاحظ أفراد الدراسة وجوده.

ومن أبرز خصائص هذا النوع من الملاحظات نذكر ما يلي:

- ليست بمعنى المشاهدة او النظر، فهي نشاطا إراديا واعيا
- الموضوعات الملاحظة مستقلة عن الذات وخارجة عنها.
- الانتباه يركز على سلوك محدد في مجال مختار.

**ثانيا. تعريف الملاحظة بالمشاركة**: وهي إحدى الطرق التي يتبعها عادة الباحثين الأنثروبولوجيين، أي أن يقوم بأعمال تقوم بها الجماعة المدروسة، وذلك تقربا منها وكسبا لودها، والدخول بالتالي إلى أدق التفاصيل في ممارسات أفراد هذه الجماعة، الخاصة والعامة. كن يمارس الباحث بعض الطقوس الدينية أو الاجتماعية، أو يقوم ببعض الأعمال التي تعد من صميم النشاط اليومي للجماعة، ولا سيما الأعمال اليدوية، الفردية والجماعية.

ومن خلال هذه المعايشة الحية للمجتمع المدروس، والمشاركة الفاعلة في مناشطه، يكتسب الباحث مهارة في أداء هذه الأعمال، وقدرة على كتابة تجربته الشخصية فيها وممارسته لها. وهذا ما يؤدي في النهاية إلى تصوير واقع الشعب المدروس، بتفصيلات تتسم بالشمولية والدقة.

وتعتمد طريقة الملاحظة بالمشاركة على محاولة الباحث الحقلي أن يشارك في المناشط الاجتماعية المتنوعة التي يقوم بها أعضاء الجماعة، بقدر ما تسمح الظروف والتقاليد. حيث يستطيع الباحث مثلا أثناء المشاركة في شعائر الزواج والوفاة والميلاد والذهاب إلى السوق، والتردد على مجالس كبار السن والزعماء التقليديين، وعند زيارة منتديات الشباب ووحدات الإنتاج، أن يحصل على الكثير من المعلومات الحقلية الوصفية عن علاقات القرابة، والعلاقات الاقتصادية والسياسية في المجتمع الذي يكون موضوع الدراسة.

ومن الأمثلة التي يمكن أن نسوقها في هذا الصدد، ما أورده الدكتور: **محمد عبده محجوب**، والذي ذهب فيه إلى أن الباحث يحاول مثلا أثناء مشاركته في المناقشات التي تدور في مجالس كبار السن، أو في ديوانية المختار.. إلخ، أن يتبين المراكز الاجتماعية المتمايزة التي يتوزع عليها أعضاء جماعة المناقشة، حيث يحتل البعض مراكز السلطة التي يصدر عنها القرار السياسي، ويحتل البعض الأخر مراكز الدفاع أو مراكز الإدعاء، ويلعب البعض دور الوسطاء، ويقوم البعض بدور الخبير الذي ينتدب لفحص موضوع النزاع، وإبداء الرأي الاستشاري. كما أن انتماء بعض الأشخاص إلى وحدة قبلية أو قرابية تحتل مرتبة دينية أو اجتماعية معينة، قد يعطي لهؤلاء سلطات في فرض القرار السياسي بالقوة الفيزيقية أو الروحية، وقد يؤثر هذا الانتماء ذاته في تعدد أشكال القرار الذي تنتهي إليه جلسات المناقشة في المنازعات المماثلة.

ويعتمد نجاح الباحث الحقلي كما يتوقف مدى دقته في وصف تلك الأحداث أو المناقشات أو في تسجيل كل تلك المعلومات الإثنوجرافية على قدرته على الملاحظة المتأنية، وقدرته على تحليل مواقف التفاعل الاجتماعي إلى عناصرها الأساسية، كما يتوقف على قدرته على تتبع الجوانب المختلفة في تلك المواقف

**ثانيا. أهمية الملاحظة بالمشاركة**: تحوز الملاحظة أهمية كبيرة في كل مواضيع البحث العلمي الأنثروبولوجي، نرصدها في التفاصيل الأتية:

- تمكن الباحثين من أن يكونوا أكثر قربا من الواقع الحقلي
- تمد المعلومات الأولية الناتجة عن الملاحظة بالمشاركة، الباحث باستبصارات لازمة لتصميم الاستمارات والاختبارات السيكولوجية وغيرها من الوسائل البحثية الأخرى المتخصصة.
- كما أن الملاحظة بالمشاركة مهمة لاختيار المعلومات الحقلية اللازمة لتقييم الشواهد التي جمعت بالوسائل الأخرى.
- تتطلب تنقل الباحث إلى مجتمع البحث، وأن يجد لنفسه مكانا في مجتمع المبحوثين يمكنه من كسب ثقتهم. وأن يشاركهم نشاطاتهم المختلفة والتي تقربه منهم حتى يتضاءل فعل المقاومة فيهم ويطمئنون له.
- إن هذا التواجد في مجتمع البحث يترك مجالا للمبحوثين للثقة بالباحث، كما يسمح للباحث بفهم المعطيات المادية والثقافية والاجتماعية التي تنظم العلاقات والممارسات في مجتمع البحث. وقد يسمح هذا التقارب بالتخلي عن الأفكار المسبقة من معطيات وتأويلات قد تؤثر على عملية التحليل للمعطيات والتي من واجب الباحث أن تكون موضوعية تعبر عن معتقدات وقيم ومفاهيم وتصورات المجتمع المبحوث مما يمكن من الكشف عن العناصر الموضوعية لبنائه الاجتماعي والثقافي.

**ثالثا. أصناف الملاحظة**: التوسع في استخدام تقنية الملاحظة بالمشاركة في مجالات البحث العلمي، أفضى إلى تباين أشكال وصيغ استخدامها، والتي من أبرزها نذكر الأتي:

1. **الصنف الأول**: وتنقسم الملاحظة فيه إلى نوعين ايضا، وهما:

➢ الملاحظة بالمشاركة النشطة Actif:ويقوم خلالها الملاحظ بالأدوار التي تقوم بها الجماعة كالمشاركة في طقوسهم وأشغالهم اليومية ولعب الأدوار التي تخولها الجماعة للأفراد في مثل وضعيته، والباحث في مجال الجنوح يمكن أن يقوم بهذا النوع من الملاحظات عبر مشاركة الجانحين لسلوكياتهم وخلق حوار حولها لمعرفة رؤية الجانحين لتلك السلوكات التي يقومون بها.

➢ الملاحظة بالمشاركة السالبة Passif: وتعني الدخول في لعبة الملاحظة دون التفاعل مع أفعال وسلوكيات الملاحظين، فالملاحظ هنا يكتفي بتسجيل الملاحظات خلال فترة تواجده مع المبحوثين

2. **الصنف الثاني**: أما الباحثة: **إيفيريت هوغيز Everett Hughes** فتصنف الملاحظة بالمشاركة إلى أربع (04) مستويات مختلفة:

1. **مشارك كامل** Participant Complet: الباحث في الميدان يصبح جزءا من المجتمع المغلق قادر على مشاركة الأخبار السرية التي لا يعرفها العالم الخارجي عن المجتمع المدروس.
2. **مشارك كملاحظ** Participant Comme Observateur: ليست مشاركة تامة بل هي مشاركة في النشاطات التي تسمح للحاضرين بوضع الباحث في إطار الدور الذي هو موجود للقيام به.
3. **الملاحظ كمشارك** Observateur Comme Participant: يسمح للملاحظ بالاندماج في النشاطات العامة والتي تتعلق بالأفراد الموجودين في الوضعية البحثية.
4. **ملاحظ كامل** Observateur Complet: دور الملاحظ هو دورا تمثيليا أكثر منه حقيقيا لأنه يفرض في جماعة معينة ومجتمع معين لفرد معين وفي إطار حدود للتواصل بطريقة لا تكشف عن "أسرار مجتمع البحث"

ونستنتج من هذا التصنيف، أن وضعية الباحث اتجاه موضوع البحث ليست ثابتة في جميع الأحوال، بل إن لكل باحث وضعا خاصا انطلاقا من علاقته بالمبحوثين ومن الزاوية التي يختارها أو التي تتاح له لتطبيق تقنية الملاحظة بالمشاركة. وهذا ما تبرزه الباحثة الأنثروبولوجية **Jeanne Favret-Saada**، حيث تؤكد أن " **التفاعل بين الأفراد واتجاه بعضهم وعندما يريد الأنثروبولوجي فهم هذه العلاقات، لا بد أن يترك الباحث نفسه للتأثر بهذه التفاعلات دون البحث عن فهمها، أو البحث فيما سيتوصل إليه، لأن الملاحظة تثبط المشاركة، والمشاركة تهمش الملاحظة** ". ومعنى ذلك أن يتعامل الباحث مع مجتمع البحث بعفوية أكبر، ويتحرر من قيود الدور الذي هو موجود من أجله، فيسمح له ذلك بالتحرر والاندماج الفعلي في مجتمع البحث متخلصا بذلك من أنواع المقاومة التي يفرضها دوره عليه في البحث.

هـذا التحـرر، يجعلـه يسـتجيب للتفـاعلات المحيطـة بـه بـردود أفعـال حقيقيـة غـير مفتعلـة تسـاعده في فهـم الظواهر لأنه يعايشها بمشاعر حقيقية.

إن الملاحظة بالمشاركة ليست مجرد الملاحظة للظاهرة عن بعد، بل هو تقمص دور فعال في هذه الملاحظة، حيث ترتقي مشاركة الباحث إلى التعايش مع الظاهرة المدروسة، وذلك من خلال معايشة مجتمع البحث مع القدرة على الاحتفاظ بموضوعية التعامل معها.

كما يتوجب عل الباحث أن يراعي زمان ومكان الملاحظة والمشاركة والمعطيات المحيطة بهذه المشاركة، فالأمر "***لا يتعلق فقط بالكتابة وأخذ نقاط وإنما في قراءة ما هو مكتوب، كيفية صياغة وبناء الظواهر الملاحظة، أو بالأحرى عملية التحليل تصبح مادة لردود أفعال جديدة قد تختلف عن تلك التي صيغت فيها***".

وإذا كانت الملاحظة بالمشاركة هي التقنية الأساسية في البحث الأنثروبولوجي، فإن الباحث كثيرا ما يجده نفسه مضطرا للاعتماد على تقنيات مساعدة تمكنه من تدارك واستكمال ما لم يتمكن من الحصول عليه من خلال معايشته لمجتمع البحث

**رابعا. سمات وخصائص الملاحظة بالمشاركة**: تتمتع الملاحظة بالمشاركة بجملة من الخواص والصفات المميزة لها، وتتمثل فيما يلي:

1. الاندماج في حياة الناس محل الدراسة مع مراعاة عدم تغيير أي شيء في الوضع القائم
2. ينشئ الباحث علاقة مباشرة مع من يقومون بأعمال تأخذ في اعتبارها أفعال وردود أفعال الأفراد.
3. الإقامة والبقاء في بيئتهم الطبيعية بغرض ملاحظة ومراقبة سلوكياتهم.
4. تتطلب حنكة وصبر من طرف الباحث بالنظر إلى الجهد والوقت الذي تتطلبه.
5. تتطلب توفر التلقائية والصدق في التعامل مع المبحوثين للحصول على معلومات وبيانات أكثر حول الوضعية المدروسة

**خامسا. شروط نجاح الملاحظة بالمشاركة**: ولنجاح الملاحظة بالمشاركة يجب توفر الباحث على مجموعة من الشروط، أبرزها نذكر ما يلي:

1) معرفة الباحث اللغة أو اللهجات المستخدمة من طرف المجموعة المدروسة، فإذا كنا مثلا نقوم بالملاحظة بالمشاركة داخل جماعة من الجانحين فيجب معرفة مفردات الخطاب المستعمل من طرفهم كأنواع المخدرات ورموزها.. إلخ.

2) قدرة الباحث على التواصل الجيد للحصول على المعلومات واستدراج الملاحظين للثقة في دوره.

3) تمتع الباحث بقدرة اندماجية مع الوضعيات التي يلاحظها.

4) الانتباه إلى مشكل الأحكام المسبقة من طرف الباحث، حيث يجب أن يكون على دراية بطبيعة العلاقات الاجتماعية والقيم السائدة والدلالات التي يعطونها للأشياء.

وفي حالة وجود مشاكل في مشاركة الباحث نفسه في الملاحظة بالمشاركة، وذلك نظرا لأسباب ترتبط بالمجتمع الملاحظ، فيمكن أن يقوم بالملاحظة شخص من الجماعة، ويلعب دور ناقل للمعلومات التي يتكفل الباحث بتنظيمها وتحليل معطياتها للوصول إلى نتائج مستنبطة من هذه الملاحظات

**سادسا. الملاحظة بالمشاركة في الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة**: يعتبر الأنثروبولوجيين أول من مارسوا الملاحظة بالمشاركة في دراساتهم الحقلية، من خلال عيشهم في وسط المجموعات البشرية بغية دراستها عن قرب، وذلك بعدما قام **مالينوفسكي** لمدة سنتين بجزيرة **تروبيراند شمال غينيا**، وفي هذا العمل الميداني طور تقنية الملاحظة بالمشاركة والتي باتت اليوم مستعملة على نطاق شاسع في الدراسات الأنثروبولوجية.

أما اليوم، فصار استخدام طريقة الملاحظة بالمشاركة في المجتمعات الصناعية المركبة اليوم يتم على أضيق نطاق في مجالها وفي إمكاناتها.

كما باتت تستكمل اليوم في بحوث الأنثروبولوجيا المعاصرة بطائفة أخرى من أساليب البحث التي تعتمد جزئيا على طبيعة ميدان الدراسة، او الفرع العلمي الذي يجري البحث في إطاره. ونظرا لأن البحوث المعاصرة أصبحت تركز في المقام الأول على دراسة مشكلة أو مشكلات بعينها، وأخذت تبتعد عن الطابع الشمولي الكلي، فقد استحدثت مجموعة من أدوات البحث المتخصصة التي ترتبط بمجالات بحثية متباينة.

**سابعا. مزايا وسلبيات الملاحظة بالمشاركة:**

**1- المزايا:** تتمتع الملاحظة بالمشاركة بجملة من المزايا، والتي نوجزها فيما يلي:

- غير مكلفة سلبيا.
- توفر معلومات عندما لا تكون طرائق جمع البيانات الأخرى فاعلة.
- توفر بيانات عندما لا يكون المبحوثين قادرين على تقديم معلومات أو راغبين في ذلك.
- توفر معلومات مباشرة من دون الاعتماد على تقارير الأخرين.
- تجري في سياق طبيعي، وتدرس الحوادث كما تتطور.
- تسمح بجمع نوعية واسعة ومتنوعة من المعلومات.

**2- السلبيات:**

- لا تستخدم مع المجموعات الكبيرة أو لدراسة الحوادث المكثفة.
- لا تستطيع تقديم معلومات عن حوادث مستقبلية أو غير متوقعة.
- لا توفر بيانات تتعلق بدرجة تكرر السلوك.
- لا تلائم دراسة المسائل الحساسة كالسلوك الجنسي والعنف الأسري.

- تتأثر بتحيز الباحث وميوله، وتعتمد على طريقة إدراكه للأمور ومدى ذاكرته.
- لا تسمح بإجراء تعميمات استقرائية للنتائج.